مقياس مدخل إلى علم النفس

المحاضرة الأولى: التطور التاريخي لعلم النفس.

من إعداد: د. شافية بن حفيظ.

تمهيد: لقد مر علم النفس بمراحل عديدة حتى أصبح علما قائما بذاته له مبادئ ومفاهيم، ومواضيع، ومناهج وطرق بحث خاصة به، وقد اجتهد الكثير من العلماء حتى يوثقوا لنا أهم المحطات التي مر بها هذا العلم، وكذا أهم العلماء الذين أسهموا في أن يصبح هذا العلم مستقل عن العلوم الأخرى خاصة الفلسفة، وحتى يحظى بالمصداقية الكاملة التي تأهله إلى أن يصبح في مصاف العلوم الموضوعية، ويستحق الثقة اللازمة التي تمكنه من مساعدة الأفراد في جميع ما يواجههم من مشكلات وصعوبات، وسنحاول عرض أهم هذه المراحل.

مراحل تطور علم النفس: يمكن تلخيص مراحل تطور علم النفس في المراحل التالية:

إسهامات الانسان القديم(مرحلة التفكير البدائي): كان اهتمام الانسان الأول منصبا على العالم الخارجي والتكيف معه، ولما التفت إلى نفسه اتجه إلى محاولة تفسير أسباب السلوك الحسن والسلوك السيء، ومن أهم التفسيرات التي اعتقد فيها القدامى هو أن هناك كائن صغير يسكن جسم الانسان ويتحكم فيه، واعتبره مصدرا للتصرفات الخيرة والشريرة، كما اعتقدوا أن هذا المخلوق الصغير قد يترك جسم الانسان ولا يعود ثانية، وهو تفسيرهم للموت. كما أنه يتصف بقدرته على الاختراق كل عائق، كما له القدرة على التواجد في أي مكان وفي أي وقت يريد، بل من الممكن أن يتواجد في مكانين معا وفي آن واحد، حيث لاحظ الانسان البدائي أنه عندما ينام يرى نفسه في مواقف وظروف متنوعة وأماكن مختلفة رغم أنه لم يترك مكانه وقد أطلق على هذا الكائن تسمية الروح، والمتأمل لحياة المصريين القدامى يجد ما يتماشى وهذه التصورات في آثاره ومعاملاته، حيث تدل الصور والنقوش بأن الموت لا يخرج عن كونه مجرد انفصال المخلوق الصغير عن الجسم، وهو بذلك لايزال حيا وعليه فلابد من تزويده بالطعام والملبس وكل ما يضمن راحته في حياته الأخرى.

كما اعتقد الانسان البدائي أيضا أن الظواهر الطبيعية مثل الشمس والقمر والبراكين تسكنها أرواح تجعلها تتحرك ودفعه بذلك خياله إلى إنشاء خرافات حول هذه الظواهر والاعتقاد في ألوهيتها نظرا لما

تتميز به من قوة وشدة، ومع تراكم الخبرات شجع ذلك على محاولة تفسير ما وراء الطبيعة فانتقل تدريجيا إلى مرحلة التفكير الفلسفي.

المرحلة الثانية(مرحلة التفكير الفلسفي): ارتبطت هذه المرحلة بآراء الفلاسفة فيما يعرف بنظرية المعرفة وكان علم النفس يعرف بأنه(علم دراسة الروح) وظل علم النفس قرونا عدة علما لروح الانسان والتأمل بنشأتها ومصيرها بحيث حاول في هذه المرحلة أن يتفهم العالم عن طريق ملاحظاته الواقعية وتصوراته ليفسر الطبيعة، وكل فيلسوف يود الاجابة عن السؤال: كيف يعمل عقلنا إزاء العالم الخارجي؟ وقد استعمل الفلاسفة القدماء كلمات مثل الروح أو العقل أو النفس لتدل على معنى واحد، وقد تميزت هذه المرحلة بدراسة العلاقة بين الجسم والعقل، وقد اختلفت تفسيراتهم لعل أبرزها أراء كل من "أفلاطون" و"أرسطو" حيث سادت نظرياتهما وفلسفتهما حتى بدء ظهور الحركة العلمية في القرن السابع عشر وسيطرت على تفكير رجال الفلسفة والعلماء عدة قرون.

وقد ارتبط علم النفس منذ بداية ظهوره بالفلسفة، فتناول الفلاسفة النفس الإنسانية بطريقة ميتافيزيقية أو استبطانية غيبية، حيث كان هناك خلط كبير بين مفاهيم الفكر، والوعي، والروح، والعقل، ووضعها بشكل متقابل مع الجسم والبدن المادي. كما ظهر اهتمام كافة فلسفات الشعوب القديمة بعمليات الإدراك، والعواطف، والمشاعر، فظهرت المساعي الكثيرة لمحاولة تفسير ومعرفة الأسباب الكامنة وراءها ووراء الانفعالات السلوكية المرئية التي يقوم بها الإنسان، فظهرت الكثير من الآراء المتعددة للفلاسفة القدماء والتي كانت تتعلق بعلم النفس والنفس البشرية ومن أهمها ما يأتي:

سقراط (399 – 470 ق- م): حيث كان يتطرق سقراط إلى حقيقة الذات الإنسانية دون الحديث عن العالم الخارجي، وأن على الفرد التأمل بذاته ليستطيع إدراك حقيقتها، وكان شعاره الفلسفي "اعرف نفسك بنفسك"، حيث آمن بمبدأ الاستقراء العقلي والقياس الاستدلالي في دراسته للنفس الإنسانية وتصوراتها الأخلاقية. وبشكل عام فقد كانت الذات والنفس هي المصدر الرئيسي والحقيقي للمعرفة عند سقراط.

أفلاطون(347-427 ق- م): يؤمن أفلاطون بالروح والتي اعتبرها من أصل سماوي، أما الجسد فقد اعتبره من أصل مادي، بالتالي فإن الروح هي التي تعمل على التحكم بالجسد وتسييره، كما كان يرى أنه لا يمكن تحصيل المعرفة المطلقة إلا عن طريق تحرير النفس من أسرها الجسدي وسموها إلى عالم المثاليّات، حيث إن الحقائق والوقائع تظهر جليةً بالنظر إلى الروح لوحدها بشكل منفصل، وللنفس عند أفلاطون ثلاث اقسام:

– **النفس العاقلة:** مركزها الرأس لأنه أعلى جزء في الجسم وهو أقرب للسماء، كما أنه مستدير والدائرة أقرب الأشكال الرياضية للكمال.

– **النفس العصبية:** وموطنها القلب.

– **النفس الشهوانية:** وموطنها البطن.

أرسطو(322–384 ق– م): كان يرى أرسطو أن النفس والعقل أو ما أُطلق عليه الروح جزءٌ غير منفصلٍ عن الجسم المادي، أي إنه نفى إمكانية الفصل بينهما، فاعتقد أن الروح هي حقائق ومعانٍ تعود في أصلها إلى الجسم المادي أو المحسوس الذي توجد داخله، واستحال بذلك الفصل بينهما كما يستحيل الفصل بين المادة وشكلها، وأضاف أيضاً أن هذه النفس هي المصدر الأسمى للفضائل الإنسانية.

واعتبر العقل مبدأ الحياة ومن ثم تصدر عنه الظواهر النفسية، والانفعالات تصدر عن النفس والجسم معا، ولأن الاحساس من فعل النفس مشترك مع العضو الذي يدرك المحسوس بل إن العقل وهو من وظائف النفس يتطلب التخيل الذي لا يتحقق إلا بالجسم، ويرى أن النفس مبدأ الحياة في الكائنات الحية والعقل مبدأ الحياة في الإنسان.

علم النفس في عصر الفلسفة الإسلامية: قدم التراث الإسلامي العلمي الكثير من الآراء والنظريات والمساهمات العلمية في كافة أنواع العلوم الإنسانية المختلفة، ومن أبرز هذه العلوم الفلسفة والعلوم النفسية، حيث كان لآراء ودراسات الفلاسفة المسلمين الأثر الكبير في الدراسات والحقائق التي قدّمها العلماء الغربيون في عصر النهضة الأوروبية، وذلك باطّلاعهم على إنجازات العلماء المسلمين والفكر الإسلامي، ومن أبرز هؤلاء العلماء والفلاسفة ما يأتي:

الفارابي(827–950): وهو من الفلاسفة وعلماء النفس الكبار، ألف الكثير من الكتب ونظريته في النفس تقوم على أن النفس لها أربع قوى هما **القوة الغاذية:** وهي القوة التي يتغذى بها الإنسان والقوة الرئيسية محلها القلب ثم تتفرع قوى ثانوية في الجسم هما المعدة، والكبد والطحال، **والقوة الحاسة:** وبها يتم إدراك الحواس الخمس بحيث كل حاسة تختص بجانب معين من الإحساس، **والقوة المتخيلة:** وهي ترسم في النفس من الحواس بعد غيابها عن الحس وتركيب صور الحواس كما تتخيل الشيء الذي مضى والذي سيحدث، **والقوة الناطقة:** وهي التي يعقل بها الإنسان ويميز بها بين الأشياء الجميل و القبيح وبين الغث والثمين.

ابن سينا (980 –1036): حيث قسّم وصنّف ابن سينا النفس إلى ثلاثة أنواعٍ وهي النفس النباتية، والحيوانية، والإنسانية، ويقر بوجود النفس ويرى أنها جوهر روحي قائم بذاته، وتتحد الروح بالجسد عقب

الولادة وتفارقه بعد الموت لتعود إلى البارئ عز وجل، كما أكد على وجود مبدأ الفروق الفردية والاستعدادات والقدرات، وعمل على الربط بين النظريّات الفلسفية، وميادين وطرق تطبيقها، وأثبت وجود العلاقة بين الفكر، واللغة، وبين الإدراك الحسي الظاهر والباطن، بالإضافة إلى تطرّقه إلى مفاهيم التوجه المهني واكتساب الأخلاق.

أبو حامد الغزالي (1058-1111): وهو من أبرز العلماء الدين والفلسفة، أشتهر بلقب "حجة الإسلام"، ألف العديد من الكتب في علوم الدين والفلسفة وعلم النفس، وله العديد من الكتب النفسية والتربوية أشهرها "معارج القدس" ونظرياته في علم النفس واسعة وخاصة في علم النفس الاجتماعي والأخلاقي، وكان يرى الغزالي بأنّ الحقائق المطلقة من الممكن إدراكها وتحصيلها عن طريق القلب والإلهام عند الأولياء والأصفياء، ويتم تحصيلها بالوحي عند الأنبياء، وعن طريق الاستدلال، والاستبصار عند العلماء، كما وقف الغزالي في كتابه "تهافت الفلاسفة" على الكثير من المسائل الفلسفية اعتماداً على الدين والمنطق.

علم النفس عند الأوروبيين(مرحلة التفكير الموضوعي العلمي):

في أوربا في بداية الأمر لم تشهد تأمل علمي كبير في طبيعة النفس البشرية حيث كانت أشد العصور ظلاما وقسوة ضد المرض عقلي او الجسدي أو الإعاقة الجسدية، وهذا نظرا لسيطرة رجال الكنيسة الذين كانوا يقتلون المعوقين لبؤسهم وبؤس الآلهة لهم ويحرقون المرضى العقلية وكذلك العلماء الذين لم يقفوا في صف ويساندوا أراء رجال الكنيسة كونهم بهم مس من الشيطان في اعتقاد رجال الكنيسة، وكان لزاما انتظار القرن 17 م ليبدا الفيلسوف الفرنسي "**ديكارت 1576/ 1650م** انطلاقة دعمت البحث السيكولوجي، ومهدت لانفصال علم النفس عن الفلسفة، حيث بحث "ديكارت" عن العلاقة بين العقل والجسد، وحاول فهم الطريقة التي يفكر بها الانسان، بحيث الجسد آلة تتحرك وتتصرف وفق طرائق يمكن التنبؤ بها إذا عرفت مدخلاتها وما يمكن التنبؤ به خاضع للبحث العلمي سواء للعضوية الانسانية أو الحيوانية، وهذه التفسيرات التي قدمها ديكارت مبادئها فيزيائية على اليات جسد.

كما طبق "لامتري **1751/1709** التفسير الميكانيكي نفسه على السلوك البشري والشعور آلة تتوقف جسدا وعقلا على أحداث الفيزيائية مثل المرض، عمى ...إلى غير ذلك، وقد كانت الفلسفة الخبرية الانجليزية التي تعني كل المعرفة الانسانية ناجمة عن الخبرة وليس عن الأفكار الفطرية ويمثل الفلسفة الخبرية" **جون لوك –دافيد هيوم –جيمس ميل** " **و من** صفاتها أنها سيكولوجية حواس. كان يرى جون لوك أن الإنسان يولد وهو عبارة عن صفحة بيضاء، تُلوَنها جميع أنواع الخبرات الحسية باكتساب المعارف الذهنية عن ط ريق الخوض في الواقع التجريبي والبيئي الخارجي. وبناء على قول عالم النفس الشهير الألماني " **هيرمان ابنغهاوس**" **1909/1850** إن لعلم النفس ماضيا بعيدا

ولكن تاريخه قصيرا أي علم النفس لم يستقر كعلم راسخ معترف به إلا قبل النصف الثاني من القرن **19م** حيث أن بعض المؤرخين يعترون عام 1860م هو تاريخ صدور كتاب عناصر علم النفس الفيزيائي للعالم الألماني " ثيودور فيخنر 1881/1801 بداية علم النفس الحديث في حين يعتمد معظمهم عام 1879م وهو تاريخ تأسيس أول مخبر في علم النفس في جامعة لايبرغ يد الألماني" فهلم فونت 1832/ 1920م غير أن تحديد تاريخ دقيق لبداية علم النفس يعتبر مسألة اصطلاحية فموضوعات علم النفس لن تفهم دون العدة إلى أصولها العميقة " الفلسفية – االبيولوجية– الفيزيولوجية ...و غيرها من العلوم.

إن علم النفس اليوم يستخدم الطريقة العلمية والمنهج العلمي ليفسر مختلف الظواهر السلوكية سواء البسيطة أو المعقدة، وأصبح له مبادئ وقوانين ونظريات وطرق بحث علمية موضوعية، وهذا يعود إلى جهود الكثير من العلماء والفلاسفة من الأجيال السالفة إلى اليوم، والذين سعوا إلى تطور هذا العلم، فبعدما كان في العصور القديمة فرعا تابعا للفلسفة يستخدم الطريقة الاستبطانية والتأمل الذاتي في البحث، وكان يعرف بعلم الروح وظل بهذا الاسم إلى غاية ظهور أعمال "ديكارك" والذي حاول فهم الطريقة التي يفكر بها الانسان، فأصبح علم النفس يدعى علم العقل، أما ما قام به العالم "فونت "من خلال إنشاء أول مخبر لعلم النفس التجريبي تعتبر الخطوة الحاسمة لانفصال علم النفس عن الفلسفة حيث يستخدم المنهج العلمي الموضوعي في تفسير الظواهر السلوكية، وفي القرن العشرين ظهر الكثير من العلماء تزامنا مع التطور العلمي الكبير، حيث كان لهم الفضل في تطور هذا العلم وارتقائه إلى العلوم الموضوعية.